في الدين

تشبيهات القرآن

للأستاذ السباعي السباعي بيومي

المدرس بدار العلوم

اشتمل القرآن الكريم على كل ماحسن من أنواع التشبيهات، فجاء فيه تشبيه المحسوس بالمحسوس كقوله تعالى في وصف الحور : « كأنهن بيض مكنون » — « كأنهن الياقوت والمرجان » — وفي عظائم السفن : « وله الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام » . وفي أصحاب الفيل « فجعلهم كعصف مأكول » وفي بعض أهوال الساعة « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » وفي عصا موسى « تهتز كأنها جان » « فألقاها فإذا هي حية تسعى » وفي هذين التشبيهين الأخيرين تصرف بديع ، فانه أراد من الأول سرعة الحركة فشبه بالجان وهو ولد الحية إذ هو أسرع منها حركة ، وفي الثاني أراد العظم فشبه بالحية نفسها ولكنه عقبها بالفعل (تسعى) لكيلا تنقص الحركة على إطلاقها .

وجاء فيه تشبيه المعنوى بالمحسوس : كقوله تعالى في أعمال الكافرين يحبطها الاشراك فلا تغنى عنهم من الله شيئا : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » — وفيها أيضا « مثل ماينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فكلتا الآيتين توضح الغرض أتم إيضاح من حيث القضاء الشامل الذى لايبقى شيئا يمكن أن يكون به انتفاع . وكقوله تعالى فيمن آتاه آياته فانسلخ منها فأصبح لايجيب بعنف ولا لين : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » فهؤلاء والكلب سواء لايجيبونك إلى الايمان قسوت أم لنت ، كما لا يطيعك الكلب إلى ترك اللهث حملت عليه أم تركت . وكقوله تعالى في عدم انتفاع

المشركين ممن يدعون في حاجتهم إلى الانتفاع : « وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

وجاء فيه التشبيه المعنوي الطرفين كقوله تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » ولكن هذا على عكس سابقيه في القرآن قليل لأن المعنويات لا تطاوع على تحقيق الغرض من التشبيه ، ولذلك تجد القرآن لا يزال يحور هذا النوع بما يخرجه إلى ناحية الحس ، ألا تراه في هذه الآية مثلا والقصد من التشبيه فيها التفريق بين حالي الضال يهدى والضال يبقى في ضلاله - قد استعمل الضلال والهدى على سبيل التجوز الإماتة والإحياء فأثرهما في الحس أوضح من أثر ضدين وعطف عليهما ، وهما الطرف الأول من التشبيه ، ما قربهما من الحس وهو قوله : « وجعلنا له نورا يمشي به في الناس » ثم لم يكتف بذلك ، بل جعل الطرف الثاني ظاهرا كله يظهر الحس إذ حذفه ولم يبق دالا عليه سوى المحسوس المناظر في الطرف الأول المعطوف وهو قوله « كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » وبهذا التصرف البديع خرجت الآية على أحسن مخارج التشبيه ، إذ كادت تكون من تشبيه المعنوي بالمحسوس أو المحسوس بالمحسوس .

أما الصورة الباقية عقلا وهي تشبيه المحسوس بالمعنوي فلم يرد منها في القرآن شيء لما يعتري التشبيه فيها دائما من الخلل الضعيف أو المبالغة الممقوتة وهذا خروج على الأصل في التشبيه لأن العقل مستفاد من الحس ، والمحسوس أصل للمعقول ، والتشبيه على هذه الصورة يستلزم جعل الأصل فرعا والفرع أصلا وهو قبيح . ولذلك لم يرد بالقرآن أيضا شيء من التشبيه المعكوس إلا إذا كانت شركة الطرفين في وجه الشبه لدى المخاطبين تبيح هذا التغيير ، كقوله تعالى : « أفمن يخلق كمن لا يخلق » لأن المشركين سووا في استحقاق العبادة بين آلهتهم والإله الحق ، وعكفوا عليها من دون الله يعبدون ، فكانت عندهم أصلا يقع به الإلحاق ، ولذلك وقع التشبيه مقلوبا ولكنه جاء في صفة تظهر خطأ التسوية بادية وعجز آلهتهم مكشوفا ، وهي صفة الخلق والإنشاء ، وكذلك قوله تعالى : « إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا » فإن العرب أولعت بالربا وأقبلت عليه أكثر مما تقبل على البيع فألحقه الله به ، ولكنه عقب على ذلك بما يفك هذا الإلحاق وهو تحليله البيع وتحريم الربا .

على هذه الصور الثلاث جاءت تشبيهات القرآن مع إدغام الثالثة بنحو ما قدمنا عن الآية الممثل بها هناك ، فهو دائما يخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، ويقدم الناقص ليلحقه بالكامل إلا أنه كان يجري في تشبيهاته كثيرا على الترفع بالكامل أن يتساوى بالناقص

وذلك فى حالات النفى مثل قوله : « يانساء النبي لستن كأحد من النساء » أى فى التنزل والامتنان أو فيما يجرى مجرى النفى كما فى قوله : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » أى فى سوء الحال ، والنفى آت هنا عن طريق الاستفهام الإنكارى ، وعلى هذا يمكن أن تخرج الآية السابقة « أفمن يخلق كمن لا يخلق » فلا تكون كآية البيع والربا نصاً فى التشبيه المقلوب .

على أن القرآن كان إذا لم يجد فى بعض التشبيهات المشبه به الفائق على المشبه حقاً وواقعا تخيره مما هو المثل الأعلى فى نظر المخاطبين وإن لم يكن من هذا العلو على القدر المطلوب ، ومن ذلك قوله تعالى . « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » فان المشبه به أمام المشبه ضئيل نحيل ، ولذلك ترى الآية قد أطالت فى وصفه بما عساه يقبض عليه الطلوع والاشراق ، فجعلت المصباح فى زجاجة لامعة لمعان الكوكب الدرى ، وجعلت زيته ـ مبالغة فى نقائه ـ معتصراً من زيتونة مباركة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، ثم جعلت مشرقه كوة صغيرة غير نافذة وهى المشكاة ليملأها بضوئه ويشتد فى جوانبها شعاعه ، ولما كان الغرض من نور الله إنما هو الهدى يشع فى قلب المؤمن إشعاع ذلك المصباح فى المشكاة ، ذكر فى الآية بعد ذلك أن تكون المشكاة فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه وهى المساجد لتتم مصابيحها ، وليكون فى ذلك ضمنا تشبيه قلب المؤمن يملؤه الإيمان بمشكاة المسجد يشع فيها مصباحه وسائر جسده بسائر المسجد طهارة وقدسا ، ولتماسك التشبيه على النحو الذى بينا وجب أن يوصل بين الآيتين قراءة فلا جواز للوقف على نهاية الأولى .

ولعل القرآن وقد عدل عن التشبيه المقلوب وتشبيه المحسوس بالمعنوى فراراً من الضعف والخفاء قد عدل لهذا أيضا عن التشبيه المعتمد على الخيال مالم تك الصورة الخيالية قد بلغت فى نفوس العرب مبلغ الصورة الحقيقية وأشد ، بما توالى عليها من صنع الخيال الذى يذهب بها التصوير إلى مدى بعيد . انظر قوله تعالى فى شجرة الزقوم . « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين » كيف اعتمد فى المشبه به على ماتتخيله العرب فى الشياطين من قبح المنظر الذى عمها وتناهى فى رؤوسها حتى صارلها فى نفوسهم من الشناعة والبشاعة ماذهب الخيال فى تصويره كل مذهب واسترسل فى تجسيم هوله أيما استرسال ، وكذا قوله تعالى فيما يعكس هذا التشبيه على لسان النسوة وقد أخرجت عليهن يوسف امرأة العزيز « فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ماهذا بشرا إن هذا الا ملك كريم » فان للملك فى النفوس صورة بلغ الخيال فى تحسنها المبلغ الفائق وأبدع فى تجميلها ماشاء له الابداع ؟